سوء العاقبة

بقلم الاديب نجيب افندي مشلاني

في سنة ١٨٦٥ كانت في احدى قرى لبنان ارملة فاضلة تقيَّة لم يبقَ لها على الارض الَّا ولد صغير اسمهُ يوسف عطفت عليهِ وصرفت قصارى جهدهـا في تربيتهِ الى ان ترعرع وبلغ اشدَّهُ. ثم اعتراها مرضٌ عضـال اشرفت بهِ على الموت فدعت ولدها ووحيدها واجلستهُ بجانب فراشهـا ثم امسكت يدهُ وقالت: « بنيَّ وحشاشة كبدي تراني على وشك مزايلة هذه الدنيا الفانية لالتقي بابيك وابائي في جنـة الخلود فلم اشأ ان افارقك دون ان أُوصيك وصيَّتي الاخيرة اطلب اليـك الَّا تردَّها عليَّ فاموت مسرورة »

فلم يسمع الشاب كلام والدتهِ حتى هطلت الدموع من شؤونهِ وكادت تخنقـهُ العبرات. فلما سكن جأشهُ اقسم لامهِ الأيمانات المحرَّجة بانهُ سيقوم بوصاتها ويسير على مشورتها. فاخذت امهُ تستحلفهُ بالله على التمسك بعرى الايمان الكاثوليكي الذي ورثهُ عن اجدادهِ ورضعهُ مع حليبها منذ نعومة اظفاره. ثم حثَّتهُ على ان يتخذ لهُ رفيقـةً عاقلة صالحة يقضي واياها سنيهِ بالسلام وخوف الله لانَّ المرأة الصالحـة على ما جاء في الاسفار الالهية نصيبٌ حسن دونهُ كل كنوز الدنيا. وقالت: « اياك يا بُنيَّ ان تنظر الى ثروتها وتضرب الصفح عن ادبهـا فتكون كجُهَّال هذا العصر يسألون عن جهاز الابنة (الدوته) ولا يبحثون عن اخلاقها وتُقاها فتسوء احوالهم ويتجرعون كأس هنائهم ». ثم اخذت مسبحتها وأهدتها لابنها كحرز يقيه فيُصلّي بها ويتذكر كلامها

ولمَّا اشتدَّت وطأة الداء على الوالدة المسكينة رغبت الى ولدها ان يأتيها بكاهن فقدم الكاهن وزوَّدها بالاسرار المقدَّسـة واسلمت روحها بهدوٍ وسكينة بين ايدي خالقها وفي غد ذاك النهار واروها اللحد مأسوفاً عليها وبقي الولد غائصاً بعدها في بحر الوجع وهو يبكيها بكاءً مرًّا لكنهُ كان يعزّي نفسـهُ بذكر فضائلها ويجدّد مقاصدهُ بان لا ينكث ابد الدهر ما وعدها بهِ

ويوسف هذا لم يكن مثريًا ولا محتاجاً وانَّما كان يأكل خبزهُ من عرق جبينهِ. فمرَّت عليهِ بضعة شهور وهو يزاول الفلاحة فيرتزق منهـا. لكنَّ شيطان المال لم يلبث ان

يستفزّ قلبهُ ويلعب بافكارهِ فطمح بصرهُ الى بعض مواطنيـــهِ رآهم ذهبوا الى اميركة بثيابهم اللبنانيّة فعادوا لابـسين « البنطالون والقميص المكوي » . فاخذتهُ الغيرة منهم وامسى لا يحلم الّا في اميركة حتى تغلّب عليهِ هذا الفكر وباع اكثر ما اورثهُ ابوهُ من الارزاق ثم اعترف وتناول القربان الاقدس وشدّ مسافرًا الى اميركة مطمح آماله

. . . .

مضى على يوسف ستّة اشهر وهو في ضواحي سان فرنسيسكو يتجوّل في القرى المجاورة ليبيع بعض العروض جماهـا كرأس مالهِ . وكان مع ذلك مداومًا على واجباتهِ الدينيّة يتقدّم على كلّ مواطنيهِ بالورع واستقامة المسلك ولا يهمل صلاة الورديّة فيتلوها كل يوم لاجل راحة والدتهِ بذات المسبحة التي تسلّمها من يدها ساعة وفاتها

فبينما كان يسير يومًا وصندوقه امتعتهِ على ظهرهِ والمسبحة في يدهِ يصلي اذ التقى باحد السوريّين اسمهُ غنطوس توطّن اميركة منذ سنين فابتدرهُ يوسف بالسلام وبعد ان تصافحا قال لهُ غنطوس : ما الذي بيدك يا يوسف

— هذه مسبحتي ورثتها من والدتي فاقضي الوقت بصلاتها

— . ما هذا الملك ناسك ؟

— اما كل كاثوليكيّ يتلو المسبحة فلمَ تتعجّب مني ؟ وانت ألا تصلّي ؟

— أنا ؟ وهل تظنّني اتيت مثلك حديثًا من لبنان لاصدّق بهذه الخرافات النسائيّة . اني قد عاشرت العالم المتمدّن وعرفت انّ المال وحدهُ يشرّف الانسان . فدع عنك هذه الخزعبلات واياك ان تتظاهر بالصلاة امام الاميركيين فانهم يعدُّونك جاهلًا غير متمدّن ويهزأون بك . واجعل اهتمامك بجمع الاموال اذ لم تأتِ اميركة سوى لهذه الغاية فهذه نصيحتي اليك اريد بها صالحك ليس الّا — — —

فلمّا سمع يوسف هذا الكلام وكان خوّار القلب ضعيف العزيمة اطرق ساعةً الى الارض ثم التقى بمسبحة امهِ في دغل الغيضة وشكر صديقهُ شكرًا حسنًا على نصيحتهِ وواصل سيرهُ الى حيث نوى ومنذ ذاك الحين لم يعد يصلّي الّا نادرًا بل اتصل بعد زمن قليل الى اهمال كل فرائضهِ الدينيّة ولم يبقَ لهُ من همّ الّا حشد الاموال باي طريقةٍ كانت الى ان جعل الخبث دينهُ والمكر ديدنهُ

صرف يوسف ثلاث سنوات في اميركة وجمع في مطاويهـا مبلغًا وافرًا من

الدراهم مكّنهُ من العود الى وطنهِ مرتديًا «بالبنطلون والقميص المكوي» اللذين حنّت اليهما نفسهُ الأمارة. لكنهُ ما اقام في قريتهِ بضعة اسابيع حتى استنكف من اهلها العائشين بالهدوء والقناعة فلم تلذّ لهُ الاقامة بينهم في قرية حقيرة صغيرة وقد اعتاد ضوضاء المدن الكبار. وزادهُ نفورًا من قريتهِ انّ سكّانها كانوا من ذوي التقى يعتصمون بحبل الدين ويجدون فيهِ قوّة وسلوانًا بل كنزًا ثمينًا لا يساوي بهِ حطام العالم باسرهِ. وكانوا كلهم يلومون يوسف على قلّة دينهِ ويذكّرونهُ بما كان عليهِ اباؤهُ من التقوى امّا هو فكان يحسبهم جميعًا جهلاء ويعتبر نفسهُ فريد عصرهِ عقلًا وذكاء. وعليهِ فانهُ ترك قريته واتخذ بيروت سكنًا لهُ

وصل بيروت حيث اغواه الشيطان وسوّل لهُ ان يعيش بالبذخ والاسراف واللعب والمقامرة فاتلف بوقت قصير معظم ثروتهِ حتى تخوّف الفقر والذلّ فشرع يفكر في وسيلة ينجو بها من هذه الورطة ويداوم على ما اعتادهُ من المقامرة والملاهي فلم يجد سبيلًا لاصلاح امورهِ غير الاقتران بفتاة مثرية. وكان هذا الامر سهلًا لما عُرف بهِ سابقًا بين اهل بيروت من الغنى والجاه. وكان اذا ذكر وصية والدتهِ الاخيرة يقول: انّ عقل امي ساذج قديم ولم تكن تعرف شيئًا من امور التمدّن أَو ليس الشبّان مثلي يقترنون بذوات المال والجمال فما يضرّ بي ان اقتدي بهم؟

ولم يمضِ زمن طويل حتى ظهر فكر يوسف الى حيز الوجود فاقترن بفتاة تربّت بالغنج والدلال بين القصف واللهو لم تعرف من الآداب الّا اسمها ومن الدين الا قشرتهُ. بيد انّ والدها كان ذا ثروة طائلة فخصّ ابنتهُ بقسم جزيل من مالهِ جعلهُ بعد اقترانها بين يدي زوجها ثمّ جعلت تبذرُ مالها هي من جهة وزوجها من جهة أُخرى حتى افنيا ما لديهما بعد سنين قلائل

وكان الله رزقهما في تلك الاثناء ولدين ذكرًا وانثى فذهب الاوّل الى اميركا لمّا بلغ الخامسة عشرة من عمرهِ وانقطعت اخبارهُ عن والديه حتى لم يعرفا أهو من الاحياء ام من الاموات. وتزوّجت الثانية برجل تقي متوسّط الحال عاشت معهُ باتمّ الهناء.

ثمّ رأى يوسف ما اداهُ اليهِ اسرافهُ وخاف ان يشتهر امرهُ في بيروت فيسقط في اعين معارفهِ. وكانت امرأتهُ مع ذلك لا تزال تلحّ عليهِ وتطالبهُ بمطالب جديدة. ولمّا لم تتمكّن من الحصول على رغائبها من لبس اثواب جديدة وركوب عربات ورشف كاس

الملذّات ساد القلق بينها وبين زجلها فنغصت عيشهُ ونغّص عيشها حتى خيّل انّ جهنماً أوت الى منزلها وفي آخر الامر عوّلا على ان يعودا الى قرية يوسف ليعتني ببعض بقايا ارزاق لم يبعها عند سفرهِ الى اميركة

فعاشا هناك نحو سنة خاملي الذكر منفردين في بيت صغير بعيد عن القرية حتى اذا كان احد ايّام شهر حزيران دخل عليهما شابٌ جميل الطلعة حسن البزّة يناهز الثالثة والعشرين من سنّهِ وطلب اليهما ان يبيت عندهما في تلك الليلة فرحّبا بهِ واحسنا استقبالهُ. فاخبرهما انهُ عابر طريق اتى حديثاً من اميركة وانهُ راجع الى وطنهِ في شمالي لبنان. ثم تطرّق الشاب الغريب الى وصف اميركة وغناها واراهما اخيراً ما جمع من المال فبُهتا لسعة ثروتهِ وبالغا في اكرامهِ

فلمّا جنّهم الليل بسطا للشاب فراشاً في غرفة كانت على سطح الدار واوى كلٌّ الى فراشهِ. امّا المرأة فانّها لم تستطع رقادًا واخذت تفكّر في غنى ضيفها ثم تذكّرت ماضيها وتمثّل لخيالها كيف كانت زهرة بنات مدينتها وزينتهنَّ اصبحت اليوم فلاّحة متروية في هذه القرية الخاملة وبعد الغنى اصبحت بالفقر المدقع وبمثل هذه الافكار كان الشيطان يجربها حتى اخيرًا وثبت من فراشها وذهبت الى بعلها وقالت لهُ: قم فالى متى انت ترقد والى متى احتمل عيشتك القرويّة. الموت ولا الفقر لقد بددت اموالي وصيرتني نظيرك فلاحة خاملة. وشرعت تسبّهُ وتشتمه وتلعن الساعة التي عرفتهُ بها. امّا بعلها المسكين فانهُ كان برجوعهِ الى وطنهِ عاد الى فطرتهِ الاولى من السذاجة ولكي يسكن روع امرأتهِ اخذ يلاطفها ويترضاها. امّا هي فابت الا تزيدهُ شتماً ولعناً واخيرًا قالت لهُ: خذ هذا السكين واذبح هذا الغريب لنأخذ ما معهُ من الدراهم ونعود الى سالف حياتنا المدنيّة

فارتعش الرجل عند ما سمع هذا الكلام وقال لها: ويحك لا ترهبين من الله أهذا حقُّ الضيافة. كيف نلطّخ ايدينا بدم شابّ غريب ائتمننا على حياتهِ ومالهِ. وان كان صوت ضميرك لا يردعك افلا تخافين من عقاب الحكومة فلربّما ...

— عليَّ باخفاء الامر لانهُ ما من احدٍ من سكان القرية نظرهُ داخلاً علينا فهيّا واذبحهُ والا . . .

وكانت تارةً تتهددهُ وطوراً تتملقهُ وتصور لهُ لذة الغنى والثروة حتى اقتنع اما

تخلصاً منها واماً طمعاً بنوال امواله واخذ السكين من يد امرأته وتوجه حيث يرقد الشاب واذ تقدَّم اليهِ ليتمم مقصده الخبيث خانه قلبه ورقّت عواطفه وتأسف على نضارة شبابهِ ورجع الى امرأتهِ معتذراً لها وقائلاً: حرام علينا ان نسفك دماً ذكياً وهذا الشاب لم يعمل معنا شرّاً. اشفقي على شبابهِ وهو في ربيع العمر... فاحتدمت المرأة غضباً وقالت لهُ بتهكم: انك لنذل جبان ليس عندك من عزم الرجال شيء.. واخذت منهُ السكين وذهبت الى فراش الشاب وبقلب صخري تقدمت اليهِ وذبحتهُ ذبح الشاة واخذت ما كان معهُ من الدراهم وجاءت الى زوجها متعجرفة وقالت لهُ: قم يا ايها النذل واحمل هذه الجثة واتبعني...

ففي اليوم الثاني لم يدرِ احد من القرية ما كان قد جرى من الاثم في ذاك المنزل الجهنمي الَّا انهُ عند اصيل النهار وقفت عربة امام المنزل المذكور وخرجت منها ابنتهما التي اسرعت وعانقت ابويها بسرور وهنأتهما بوصول اخيها من اميركة واخبرتهما كيف انهُ مرَّ بها وقال انهُ قصد التنكر عليكما ليرى ان كنتما تعرفانهِ. فعندئذٍ عرف المنكودا الحظ ان الذي قتلاه ليلة امس كان حشاشة كبدهما ووحيدهما...

محادثة رابعة لغويَّة

لحضرة الاستاذ رشيد افندي الشرتوني محرّر البشير ومدرّس الخطابة في كليَّة القديس يوسف

انجز عثَل وعدهُ ورجع اليَّ بعد ثمانية ايَّام وبيده المقالة التي كتبها صاحب مجلَّة الضياء في الانتقاد على كتبة الجرائد وهذا خلاصة ما دار بيننا من الحديث:

(قال) رأيتُ في كلامك لفظة عَشَم بمعنى أمَل والحال ان صاحب مجلة الضياء ينتقد على كتبة الجرائد استعمال هذه الكلمة بالمعنى المذكور ودونك نص كلامه (في الصفحة ٦٣) «ويقولون لهُ في هذا الامر عشم اي امل وانما العشم في اللغة بمعنى الطمَع واستعماله بمعنى الامل عاميّ» فهل لهذه الدعوى صحة؟

(قلتُ) ان تفرقته بين الطمع والامل في هذا المقام هو غلط محض لان اللغويين كلهم متفقون على ان الطمع والأمل مترادفان فهم يفسرون الطمع بالرجاء والرجاء بالامل فيكون الطمع والامل بمعنى واحدٍ